نقد الوظيفة الإمبرياليَّة والسِّياسة الشُّموليَّة للمراكز البحثيَّة

ادريس هاني *

مدخل

أوثر أن لا تكون هذه المحاولة تقليديَّة؛ لأنّها معنيَّة بتصيّد المعنى، خارج سلطة البارادیغم الوحيد، بهدف كسر النّزعة المحافظة في العلم، تلك الَّتِي لازمت مفهوم الأُنموذج المعرفيّ، بوصفه قوَّةً تفسيريَّةً وحيدةً للفكرة والحَدَث. تلتقي فكرتي عن البارادیغم المفتوح، كما عالجتها في كتابي (المفارقة والمعانقة)، مع فكرة الانفتاح في العلم عند النّقديِّين، مثل: كارل بوبر، والآنارشيين مثل: فيرابند والتسامحيِّين، مثل: لاكوتوس في برنامج البحث. ففي كتابي ذاك، أشرت إلى فكرة تحوُّل المركزيَّة بين أُنموذج وآخر، «فما قد يكون مركزيًّا من منظور بارادیغميّ مُعيَّن، قد يغدو ثانويًّا من منظور آخر؛ بل حتى بالنسبة إلى البارادیغم الواحد، تتعدَّد زوايا النَّظَر، وتتشعَّب مستويات الرُّؤية ما بين نهج الاعتدال ونهج التَّطرُّف»[1]. يبدو مصير الموضوعيَّة معلّقًا هنا على طبيعة البارادیغم نفسه، ما بين المغلق منه والمفتوح،

* مفكّر مغربي، باحث في قضايا الفكر الفلسفي والسياسي.

1- ادريس هاني، المفارقة والمعانقة، رؤية نقديَّة في مسارات العولمة وحوار الحضارات، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، 2001م، ص85.

يصبح الباراديغم نقيضًا للموضوعيَّة لسببين:

السَّبب الأوَّل: حيثما كان الموقف من المعرفة يتّجه صوب الاحتمال والنسبيّة والاعتبار، لم تعد هناك أي خطورة على النّظر من الباراديغم؛ لأنّه في مثل تلك الحالات، يغدو آليّة في النَّظر، ذات وظيفة إجرائيَّة تتكامل مع مختلف الباراديغمات الأخرى لإنماء الرُّؤية. فحيثما ساد منزع الاعتبار، ألفينا أنفسنا أمام طبيعة باراديغمية مرنة، أسميها: الباراديغم المفتوح.

السَّبب الآخر: حيثما استبدَّ العامل الأجنبيّ عن المعرفة؛ أي السلطة، بما هي جملة العوامل الضّاغطة على سير النظر وموضوع البحث، استغلق الباراديغم وأمعن في التَّحصُّن، مخلفًا آثارًا سلبيَّة على المعرفة، وتلك السُّلطة كما نتأمّلها تتخذ الصور الآتية:

1. سلطة سوسيو- ثقافيّة، تتحكّم بالجانب اللاّواعي للباحث، وتحدّ من اتّساع رؤيته لما فوق السقف المعرفيّ الَّذِي يتيحه المجتمع. وتلك السلطة السوسيو- ثقافيَّة قد تتعلّق بمجتمع برمَّته، أو بطبقة اجتماعيَّة ما.
2. سلطة التَّخصُّص، حيث تجعل الباحث يرى إلى الإشكاليَّات المعرفيَّة المعروضة من خلال ما أحرزه من ملكات، ضمن تخصُّص علميّ، أو معرفيّ مُعيَّن.
3. سلطة أيديولوجيَّة تحوّل البحث العلميّ إلى وظيفة ثانويّة لإسناد رؤية غائيَّة.
4. سلطة سياسيَّة، تحدِّد سقف النَّظر، وترسم حدود الاجتهاد، حيث يزداد تأثيرها إلى قدر تغدو الرّقابة فيه ذاتيَّة، تفسد ضمير الباحث، وتصيبه بالعقم والإحباط.

يلتقي مفهوم الباراديغم المفتوح مع العبر- مناهجيّة الأثيرة، ليشكّلا في نظري معًا ثورة في التّأويل؛ بل هما عماده؛ إذ لا تأويل مع تسلّط الباراديغم الوحيد والمغلق. أقصد بالباراديغم المفتوح، أنموذجًا معرفيًّا مُتعدِّد زوايا المقاربة، وعابرًا إلى ما بعد ـ المنهج؛ أي المُضِيّ بالمهمّة المعرفيَّة إلى أقصاها وما بعدها، فيكون الغرض من البحث العلميّ، هو تحقيق الغرض الأنطولوجيّ أكثر من الوقوف عند التَّقويم التَّقليديّ الَّذِي يستند إلى مستوى دربة تطبيق المناهج. هذا النّمط من التَّقويم أسهم في تكريس الجمود؛ بل أسهم في إضعاف المناعة في الجسد

المعرفيّ، بعد أن أصبح الهوس الأكاديميّ لا يكاد يتجاوز مَهمّة تنزيل المفاهيم وتركيبها دون الذّهاب إلى أقصى المهمّة المعرفيَّة فضلًا عن العبور خارجها لتحقيق المهمّة الأنطولوجيَّة. وسوف ندرك تِباعًا كيف أنّ مراكز الأبحاث والدِّراسات أسهمت في تكريس الوضعيّة المدرسانيّة، حيث ركّزت على انتظام المعرفة ضمن أنساق تنزيليّة دون اهتمام بالإبداع. فلئن كان الوضوح والانتظام سمة للمدرسانيَّة التَّقليديَّة[1]، فإنّنا اليوم، وبفعل العصف المراكزيّ في العالم افتقدنا خاصِّيَّةً من خصائص المدرسانيَّة، وهي الوضوح، فأصبحنا أمام حالة انتظام معرفيٍّ من دون وضوح، وهو ما سنتناوله في هذه المحاولة.

لن تكون هذه الأخيرة ـ إذن ـ تقليديّة، بهذا المعنى؛ لأنّها تراهن على نزعة انقلابيَّة معرفيَّة مُسبقة، بعد أفول عصر الواحديَّة المقارباتيَّة والمنهاجيَّة؛ لمصلحة سرب من البدائل الَّتِي انتهت بإقرار العبر ـ مناهجيّة وأساسها الآنارشيّ، في مُتحدّ سنقيمه هنا بين العبر ـ مناهجية الباسرابيَّة (Basarab Nicolescu) والآنارشية الفيرابندية (paul karl Feyerabend): نزعتان تخشاهما المؤسَّسة العلميَّة ومراكز الأبحاث، لا لأنّهما يؤسّسان لبدائل ثوريَّة في مجال المعرفة فحسب؛ بل لأنّهما يفضحان أيضًا، بؤس التَّطبيقات المناهجيَّة المُتداولة، ويكشفان عمَّا يمكن أن نُسمِّيه سياسة الخصاء المعرفيّ لمراكز الأبحاث والدِّراسات الموصولة بمشاريع السَّيطرة والتَّآمر على الدّماغ البشريّ؛ ولأنّهما يعملان على إعادة الأمور إلى منطقها الأصيل.

ندرك أكثر الدَّور المزدوج لمراكز الأبحاث في الغرب، لا سيَّما الكبرى منها، إذا ما وضعناها في سياق جدل المعرفة والسُّلطة، وكذلك في إطار النّظام التَّعليميِّ نفسه الَّذِي يتكامل مع تلك الوظيفة الَّتِي باتت رهانًا موازيًا في اكتساب سُلطة البحث، وتوفير فرص إضافيَّة لسوق الشغل. بات واضحًا أنّ المرور من مراكز الأبحاث قضيَّة لا غنى عنها؛ إذ لا يكفي التَّكوين والابتكار خارج قواعد اللّعب، أو ما يمكن أن نعدّه جزءًا من إجراءات لعبة المراكز وتكاملها مع لعبة الأُمم في تدبير علاقة المعرفة والسُّلطة على مستوى العلاقات الدَّوليّة والإقليميّة. وهو يدخل في سياق فرض سياسات للفكر والإنتاج المعرفيّ وتوزيعه بالشروط ذاتها لإنتاج الثَّروة وتوزيعها.

1- أستعمل المدرسانية هنا تسامحًا وتجوّزًا، لأنّ ما يحصل اليوم فقد متانة المدرسانيّة، تلك الَّتِي أظهرت قيمة إبداعيّة في شروحها؛ بينما يغلب على مراكز الأبحاث التّكرار والتّقليد.

لا نفكّر انطلاقًا من فراغ؛ بل هناك دائمًا تربية على أنماط التّفكير من خلال مخرجات نتائج الأبحاث، الّتِي تأخذ في الحسبان حراسة قواعد التّفكير وأهدافه. إذن، يصبح النّقاش مشروعًا وهو يستهدف مستوَيَيْن: أحدهما؛ يتعلّق بالعقل النّاظم للمعرفة ودور مراكز الأبحاث في قمع كلّ مظاهر الابتكار خارج الباراديغم المُقرّر، والآخر؛ العقل المُنتظَم[1] الّذِي يمثّل ميراث المعقول الّذِي يتحوّل بدوره إلى أرضيّة قبليّة لتحديد مصير التّفكير والعقل عبر آليّة إعادة الإنتاج.

لقد بات واضحًا أنّ المفصل الأضعف في العبر ـ مناهجيّة ـ وهي غاية ما نصبو إليه ـ هو الشّجاعة من أجل الوجود، تلك الشّجاعة الّتِي تمنح معنى للمعرفة نفسها، متى أصبحت غاية لها، وهي ممنوعة متى افتقدنا القابليّة للقفز الحُرّ في فضاء الآنارشية، بوصفها لحظة التّمرُّد القصوى لاستعادة العقل من مشرحة الخصاء. لا تقوم العبر ـ مناهجيَّة فقط على عَدّ المنهج وحيدًا، أو مُتعدِّدًا، أو بينيًّا فحسب؛ بل لا بُدّ من آنارشيّة تنفض غبار المناهج وتقبض على المستبعد إبستيمولوجيًّا، على المتجاهل ميتودولوجيًّا، على المقصي تاريخيًّا.

تبدو المقاربة الآنارشيّة ضرورة عبر ـ مناهجيّة، لإطلاق سراح الانتقال بين المناهج والبحث الدّائم في الإمكان للتّخفيف من وطأة الوفاء المُغرض والكيدي أحيانا للمنهج، وهو شرط أساس في الجماعة العلميَّة الخاضعة للتَّأطير والتّأطُّر. ولأنّ الآنارشيّة تقوّض مشروعيَّة الوظيفية المقوليّة لإمبرياليَّة التّفكير، ومغالطات الامتثال الباراديغميّ، مدفوع الثّمن من أموال الضّرائب الّتِي يدفعها المواطنون، لإعادة إنتاج أنماط الخضوع، أو تلك الّتِي تُدفع من أموال الضّرائب المفترضة في إطار النّفقات المُعفاة من الضّريبة. فباتت المراكز تتجاوز وظيفتها في تجسير العلاقات وتشبيكها وتيسيرها لبلوغ المراد؛ بل باتت سياسة قمع منهجيّ للإبداع وارتباطات مع شبكات المصالح الدَّوليّة والإقليميّة.

1- سأكون مُضطرًّا لاعتماد التَّقسيم اللالاندي نفسه، نظرًا إلى أهمّيّته في تشريح وضعيّة المعقول الّذِي تنتجه مراكز الأبحاث بشكل عام. يميّز أندري لالاند بين العقل الفاعل، أو المنظِّم الّذِي يستند إلى أصول التّفكير العامّة وقواعده، وبين العقل المنتظم الّذِي يمثله محصول ما أنجزه العقل، ويصبح له تأثير على العقل المُنظِّم نفسه. وهنا، يهمّنا التّركيز على العقل المنتظم، وهو حصيلة ما راكمته تلك المراكز في حيّز زمنيّ محدَّد، لعلّه تضاعف بشكلٍ مُثير، وتأثيره العكسيّ على العقل وملكة التّفكير.

وفي ضوء ما تقدّم من تعليل، ستنقسم هذه المحاولة إلى قسمين:

- القسم الأوّل يُعنى؛ بالمراكز البحثيَّة، ومصير العقل وأنماط التفكير؛ أي ما يقع جوابًا عن سؤال: ما أنموذج المفكّر المثالي داخل محشر مراكز الأبحاث؟ هذا البحث يرصد آفة التّآمر على الذّهن البشريّ، تتولّى فيه المراكز البحثيَّة بالشُّروط المذكورة دورًا إستراتيجيًّا في إعادة الإنتاج حسب المفهوم الغنيّ لبيير بورديو.
- كما يُعنى القسم الثاني؛ بالمراكز البحثيَّة، ومصير المجتمعات في لعبة الأمم، وأقصد مراكز الأبحاث المعنيّة بتدبير الأزمات والموصولة بشبكات المصالح والدّول ومجموعاتها، سواء في مركز المراكز في الغرب، أو إعادة إنتاج تجارب التمركز المراكزي إقليميًّا، وهو ما يقع جوابا عن سؤال: ما أنموذج التّفكير المثالي في أجندات مراكز البحوث ذات النّشأة الوظيفيَّة المعلنة، أو غير المعلنة، والغايات الَّتِي تؤمن الوصل الحتمي بين المعرفة والسّلطة في شروطها الإمبرياليَّة؟

سيكون السُّؤال المشترك: هل نحن في مراكز الأبحاث على قواعدها المعمول بها اليوم، في خدمة المعرفة، أم أنّ المراكز تسعى إلى تدبير المعرفة على قاعدة احتياز السّلطة والهيمنة وتعزيز الفوارق؛ ما يتيح لنا فرصةً لإثارة سؤال العدالة في البحث العلميّ وطبيعة التّوزيع المُمنهج لمخرجات مراكز الأبحاث ومفاعيلها، الَّتِي أصبحت تعمل أكثر من أيّ وقت مضى بوصفها منظّمات سرّيّة، وأحيانًا كما ستؤكّد أدوارها في الحروب والتّآمر المعرفيّ على الحقيقة، أنّها باتت أقرب إلى تنظيمات وظيفيّة، ودولة داخل الدولة.

«الَّتِينك تانك» مجموعات التّفكير ومصائر العقل والمعقول

لا يمكن تناول أزمة البحث في إطار المؤسَّسات ومراكز الأبحاث الموجّهة، أو المتعاونة إمبرياليًّا دون استحضار مصير العقل البشريّ. فلقد أسهمت مراكز الأبحاث تلك في القرارات السِّياسيَّة المُتحكّمة في مصير الأُمم، وهو ما سنبحثه في القسم الثاني، ولكنها أيضًا أسهمت في التَّحكُّم في اتِّجاهات الرأي، وتقويض الرّأي الحُرّ بوسائل سلطة المفاهيم المتداولة والمتفلّتة من العمليَّة النّقديَّة.

تؤثر مراكز الأبحاث والدِّراسات في الأنماط الفكريّة عبر وسائل الضّغط

والتّوجيه وعقود الإذعان المعرفيَّة؛ بل لقد بات التَّعاقد مضمرًا في ما يُعرف بعقد المعاطاة، حيث يدرك كلّ من الطّرفين ما يريد، ومن دون حاجة إلى إمضاء على شروط مُقرّرة، أو صيغ مُحدّدة.

تفرض مراكز الأبحاث والدِّراسات المُوجّهة على الباحث الانطلاق من نتائج مُتوقّعة، ويدرك الباحث دوره ومهمّته داخل ورشة التّفكير؛ لينخرط في عمليّة إنتاج الوعي العامّ الَّذِي تقتضيه السِّياسات.

هناك ثلاثة اعترافات من مشارب مختلفة تلتقي في مفرق الطُّفولة الثّوريّ، لها علاقة بالتربية والمعرفة، وبالتّعليم والفكر، وبالحُرّيّة والعلم:

يقطع الطالب مسيرة التّعليم لا التّربية، مُحمّلًا بكلّ الجروح التَّربويَّة والبيداغوجيَّة والديداكتيكيّة، لا شيء يتغيّر حتّى يسقط في شبكة المراكز البحثيَّة في سياق اقتحام سوق الشّغل، ويباشر البحث والتّفكير والرصد وهو مُحمّل بخواطره السِّرّيَّة غير المُعلنة، وطفولة مضطربة، لم تتعوّد على التَّفكير الحُرّ. لا توجد مرحلة وسطى وانتقاليَّة.

في إنجيل متى، يواجهنا قول المسيح: (لن تدخلوا ملكوت السَّماوات حتَّى تكونوا أطفالًا). لا أتحدّث فقط عن النّقاء؛ بل عن الجدِّيَّة الَّتِي يفتقدها الرَّجل، فهو يلهو على طريقته، لكنّه يفقد شرطًا أساسًا في ذلك اللَّهو، أعني الجدّيّة. يعيدنا بورخيص إلى تلك الحقيقية حين يعترف بأنه يحبّ جدِّيَّة الطّفل الَّذِي يلهو. سيستمر الإنسان في مهامِّه اللّعبيَّة برسم الإنسان اللّعبيّ ـ هوزنغا ـ ولكنّه لا يفعل سوى أن يقوّض مفهوم اللّعب الخلّاق والبريء في الوقت نفسه، جدّيّة الطفل إذ يلهو.

إنَّني أُريد من الباحث في المراكز البحثيَّة أن يدخلها طفلًا، يكتشف داخلها كل مُمكنات التّفكير، يُفجّر فضوله كلّه، وجدّيّته الَّتِي تقتضيها لعبة المعرفة نفسها، بِوصفها نظمًا عقليًّا للعالم. إنَّ ذلك الطفل هو من وضع خريطة طريق نحو تحقيق مصيرنا العقليّ الأمثل، لولا عوائق التّفكير القبليّ، وتراجع جودة التّربية ومنظومة القيم، هو من اكتشف أهمّ القواعد الَّتِي سنحفظها بالممارسة؛ بينما اهتدى إليها الطفل بالتّجريب، والاكتشاف، والتَّمرُّد. لماذا تحاول المراكز البحثيَّة أن تقمع ذلك الطفل الَّذِي وجب أن يظلّ يرفدنا بالخيال وإرادة التَّمرُّد في مجال البحث العلميّ، الَّذِي يعاني الجمود والتّكرار؟ لأنّه إن توقّف ذلك الطفل، فسيتوقف

ركب الحضارة برمّته، هذا إن لم أقل سيتوقف العقل، وهو أخطر من كلّ الآفات الَّتِي تتهدَّد وجودنا ومصيرنا على هذا الكوكب. أعني بذلك، أنّه يتعيّن علينا أن ندخل مراكز البحث بطموح الطفل للاكتشاف، لا أن ندخلها مُحبطين، مُقمحين، مقموعين، غير معنيّين بالاكتشاف والإبداع.

يدخل الباحث إلى مراكز الأبحاث مُتنكّرا لروح الاكتشاف الَّتِي يلهمها الطّفل؛ بل يدخلها مُدجّجًا بأدوات يجب أن تكون هي المعيار والحاكم على كلّ مُبادرة في التَّفكير، بِلاَءَات لا حدود لها تحت قهر منهج ما زال دوره الإستراتيجيّ في لعبة المعرفة وإدارتها، هو حراسة الجمود. عمليَّة تنزيل المناهج المُقرّرة باتت خداعًا ينطوي على التّكرار والجمود؛ أي التَّطبيقات المفاهيميّة الَّتِي تحوّلت إلى خداع والتفاف على ملكة التّفكير الحُرّ.

تكمن المفارقة هنا في أنّ الفرد لم يعد يُعَرَّفُ بإبداعه؛ بل بات يعرف بانتمائه وكانتوناته وتمسرحاته، وكأنّها هي الَّتِي تفكّر لا الشّخص؛ وهنا تبدأ المشكلة الأنطولوجيَّة للبحث العلميّ، حينما يصبح البحث تمرينًا لتدمير مُمنهج للذّاتيّ تحت طائلة الموضوعيّة ومطلبها. شكل جديد من البيروقراطيَّة وجب أخذه في الحِسْبان؛ لتيسير دور المُفكّر في تاريخ العلم والمعرفة. وجريًا على موت المؤلّف لدى «رولان بارت»، هناك موت الباحث لمصلحة المراكز البحثيَّة، ميل منهجيّ لميكانيكا البحث العلميّ، حيث الفرد يصبح جزءًا من جهاز يفكّر من خلاله وله، وحيث تعزّز المراكز البحثيَّة عبر تقنيّات الاحتواء، حالة الخصاء المعرفيّ.

تبدو وضعيّة مراكز البحوث بشروطها اللّاثوريّة اليوم، تعبئة للباحث بالمعايير المدرسيَّة (scolaire)؛ أي الكائن المُزوّد بالأدوات المعرفيَّة الضَّروريَّة للنُّهوض بمهامّ مُحدّدة مُسبقًا، انتكاسة إلى عهد العقل ـ الجملي عند نيتشه، وتنكُّرًا لرشد الطفولة. وجب على الباحث أن ينسى أدواته المعرفيَّة؛ ليعيد اكتشاف أدوات أكثر حدّة ومضاء، عليه أن يتجرّد، وهذا هو المعني الثَّوريّ للتَّجرُّد، وغيره لن يكون سوى ضربًا من الإيمائيَّة (Mimique) الَّتِي ارتهن لها البحث العلميّ ارتهانًا لا رجعة فيه.

ففي البدء كان الشخص، كانت ملكة التّفكير، وكانت الشجاعة من أجل المعرفة. وفي تاريخ الأفكار، لا يمكن الاستهانة بدور التّفكير الفرديّ في تحقيق الانقلابات الكبرى في تاريخ العلم والمعرفة. لم يكن روسو، أو هيغل، أو كانط، أو

شبنهاور... نتاجًا للمراكز البحثيَّة بشروطها القهريَّة؛ بل إذا ما استثنينا مراكز قامت على ميثاق الابتكار، مثل: حلقة فيينا، ومدرسة فرانكفورت، لم نجد هناك نظيرًا يمتلك الشجاعة الثَّوريَّة لإعادة إنتاج المعنى. لم يكن خبراء الفكر وقادته في مدرسة فرنكفورت، مثل: أودونو، وماركيز، وهابرماس، إلخ،... صناعة للمدرسة المذكورة؛ بل هم من أنتجوا المدرسة.

الوفاء للباراديغم

شكَّلت فكرة الباراديغم واحدةً من الاكتشافات الرَّائدة في تنظيم المعرفة، ودائمًا كان تنظيم المعرفة مطلبًا مدرسانيًّا، درءًا للفوضى والفوضويَّة؛ غير أنّ تحدّيًا آخر سيطرأ على هذا الاستخدام المفرط، أو لنقل الشّطط في استعمال سلطة الباراديغم، الَّتِي تجاوزت مهمَّة التَّأطير والتَّفسير والنَّمذجة، لتصبح سلطة قمع معرفيّ، وحراسة الأُنموذج. وكانت المراكز وما زالت مجالًا لتطبيق نماذج معرفيَّة، وتنافس في مجال إخضاع المعرفة للعبة التّنزيل الباراديغميّ. تحوّلت الغاية من خدمة المعرفة المحتملة إلى انضباط عسكريّ بمبادئ الإطار المعرفيّ. ولم يكن هناك من مخرج من تلك الوضعيَّة غير نهج ضرب من الآنارشيَّة «الفوضى» الَّتِي تأباها مراكز الأبحاث الواقعة تحت تأثير النَّماذج المعرفيَّة وتأطيرها، لكنّها آنارشيَّة مهما تنكّرت للمنهج، إلاّ أنّها تخفي الرّغبة في البحث عن بدائل تجمع بين المنهج وما بعده؛ أي المنهج بوصفه أداةً غير مانعة من تحقيق التجاوز المعرفيّ عند الاقتضاء. وهذا هو المطلب الثوريّ للعبر ـ مناهجيّة بوصفها انقلابًا على الشّطط في استعمال سلطة المنهج لا المنهج؛ لأنّ الضَّمير المُستتر في تلك الدَّعوة هو منح السُّلطة للأنطولوجي بوصفه هدفًا مُوجّهًا للخبرة المعرفيَّة، وغايتها القصوى.

تصبح مراكز الأبحاث والدِّراسات التّابعة لشبكة المصالح، حارسة للباراديغم وليس العكس؛ بل هناك جدل بينهما ينتهي بتبادل الوظيفة، أو لنقل هو ضرب من الاحتواء المزدوج. ويُؤدِّي الباراديغم دورًا إستراتيجيًّا في كبح جماح العقل المفتوح، كما يُنجز أرضيَّة معرفيَّة مغلقة لتكييف العقل؛ أي ربط العقل بشرط الوجود، فبما أنّ هناك (وجودًا ـ لأجل) في شروط إمبرياليَّة تُؤدِّيان فيهما العلامة والرمز دورًا مركزيًّا، كما يُؤدِّيان فيهما نمطا الإنتاج والاستهلاك دورًا إستراتيجيًّا،

فإنّنا نتحدّث أيضًا عن (عقل-لأجل)، وهو ما تنهض به مراكز الأبحاث الّتي هي في هذا السّياق(مراكز-لأجل). بهذه الشُّروط اللّاديمقراطيّة تصبح مراكز الأبحاث ذات الأهداف الإمبرياليَّة، ليست جزءًا من مَأْسَسة التَّوجيه والزّيف؛ بل أداةً لتنميط العقل، وتربية الدّماغ على شروط معرفيَّة، يُؤدِّي فيها القياس المُغالط دورًا مركزيًّا، حيث غياب الوسط المنطقي في لعبة المقايسة يتيح اختراقًا غير معرفيّ في صميم المعرفة. فلئن كانت أولى مظاهر الزّيف تستند إلى القياس المغالط، فإنّ الآنارشيَّة هي ثورة جديدة ضدّ عودة ذلك القياس وتمأسسه؛ ما حدى بالثورة الأنرشيّة أن تناهض المنهج من حيث هو قياسي لمصلحة اللاّقياسيَّة (incommensurabilite).

المؤشرات الثَّوريَّة حول أزمة الأنطولوجيا في منشئها الثّوريّ: النيتشيّ، والهيدغريّ هي علامة على انحطاط العقل وانحساره، ولقد امتدّت الأزمة لأنماط البحث العلميّ ودور الباراديغم في تقويض إمكانيّة العقل المفتوح. وقد استطاع «فيرابند» أن يدرك مكامن الأزمة الّتي قوّضت روح العلم نفسه، من خلال كسر أطواق الباراديغم، واجتراح الفوضويَّة بِوصفها منفتحًا أصيلًا لا غنى عنه في تطوُّر البحث العلميّ. وهي محاولة ثوريّة تستند إلى الروح النيتشيَّة، وتستكمل مسار كارل بوبر في نظريَّة الدّحض وتعانق العقل-الآخر، وهو في الحقيقة ما كان مستبعدًا في قرارات التّعقيل الممنهج الّتي يفرضها الباراديغم، وتعزّزها عقود الإذعان البحثيَّة في مراكز الأبحاث المرتهنة لسياسات السّيطرة. إنّ السَّيطرة على عالم الإنسان لن تتأتَّى دون تحقيق السَّيطرة على العقل، وهذا ما سعت الدوائر الإمبرياليَّة إلى تحقيقه.

في محاولة «فيرابند»، هناك مكمن أساس للعبر-مناهجيّة، ذلك لأنّ الرَّبط بين الاثنين أمر جدير بأن نغامر فيه، لكنّنا حين نستوعب أزمة العقل والمنهج، ندرك بأن فيرابند لم يكن نقيضًا للعبر-مناهجيّة؛ بل إنّ أنارشيته ستكون أفضل أرضيَّة للعبر-مناهجيّة، من جهة تأمينه مَهمّة تقويض مُسوّغات المنهج الوحيد والباراديغم المغلق. لكن وبما أنّ «فيرابند» يمضي في طرائق العلم بانتظام، ويعاقر التَّفكير بوسائل الإقناع، فهو لا يخرج عن المنهجيّة، ولكنَّه يأبى سُلطتها الواحديَّة لمصلحة التَّعدُّديَّة. إنّها سُلطة العقل العاري الَّذي ينشئ طرائقه، ويواصل نخلها باستمرار، فالعقل هو الضّامن، وليس المنهج. إيرادي للآنارشيَّة هنا، يكمن في أهمّيّتها داخل الرّهان العبر-مناهجيّ، فقيمة الآنارشيَّة هنا، هي في فضح سلطة الباراديغم، وتبرّم

مراكـز الأبحـاث، لا سـيَّما ذات الطَّابـع المُوجّـه والمُتحكّـم فـي مصيـر العقـل، مـن الموقـف الثَّـوريّ للآنارشـيَّة. وفـي أفـق تنامي تلـك الرّغبـة فـي اتِّسـاع مـدارك الحقيقـة والعلـم، نكـون قـد وضعنـا أيدينـا فـي واحـدة مـن وسـائل مناهضـة التّمركـز الإمبرياليّ لمراكـز البحـث والتحكُّـم في مصيـر العقـل. ومِـنْ ثَـمَّ، فـي مصيـر الإنسـانيَّة بمورديهـا: الطَّبيعيّ، والبشـريّ. إنّ الخاصِّيَّـة الأسـاس للآنارشـيّة هـي الحرّيّة واتِّسـاع مدارك ممارسـة المعرفـة. ففـي مـاذا تفيدنـا الآنارشـيَّة إذن؟

ترتكـز العبرـ مناهجيّـة علـى ثُلاثيَّـة أسـاس حسـب «باسـراب نيكولسـكو»: وجـود مسـتويات مُتعـدِّدة للواقـع، الثالـث المشـمول، والتعقيـد. إنّهـا تبـدو مختلفة عـن التَّعدُّديَّة المناهجيّـة والبينـ مناهجيَّـة، ليـس مـن حيـث خروجهـا عـن المنهـج فحسـب؛ بـل مـن حيـث كونهـا غيـر مدرجـة فـي البحـث المنهجيّ[1]. بهـذا المعنـى يـرى العبرـ مناهجيّ أنّ موقفـه لـن يكـون فـي قمّـة الهـرم؛ بـل العبرـ مناهجيّـة هنـا لا تعـدو أن تكـون وسـيلة بحـث، تـؤدّي وظيفـة الانفتـاح علـى العالـم، حيـث وعلـى الرّغـم مـن إمكانيّـة وجـوده دائمًـا، إلّا أنّنـا سـنجده فـي مسـتويات النّظـر وعمقـه، وشـدّته، وجودتـه، مُتغيّـرًا[2].

فـي المجتمـع المغلـق، حيـث غيـاب الديمقراطيَّـة، كالمجتمـع العلميّ المغلق، حيث غيـاب التَّواصـل وحـوار الحقـول، أو مـا أسـمّيه بالتّحاقـل أو التّحقيـل، وأقصد بـه ما يأتي تموسـقًا علـى وزن التّلقيـح؛ بمعنـى أنّ حـوار الحقـول المعرفيَّـة خاصِّيَّـة العبر ـ مناهجيّة؛ لأنّ العالـم مُتشـابك، والوجـود مُعقّـد ومُتغيّـر. وسـوف يحيلنـا «إدغـار مـوران» إلـى واحـدة مـن ذلـك الثّالـوث العبرـ مناهجي ألا وهـو التّعقيـد؛ ليسـلّط عليـه الكثيـر مـن الضّـوء، وبذلـك عُـدَّ عـن جدارة: فيلسـوف التّعقيـد. ويمكنني القـول بـأنّ العبرـ مناهجيّة شـهدت تطـوُّرًا ملحوظًـا علـى مسـتوى التَّنظيـر، بـدأ مـن واضـع المصطلـح، العالـم التَّربـويّ الفرنسـيّ «جـان بياجـي»، وصـولًا إلـى الفيلسـوف الفرنسـيّ «إدغـار مـوران» الَّـذِي منـح التَّعقيـد مسـاحةً كبيـرةً فـي مُقارباتـه الحَيويَّـة[3]. يلاحـظ «إدغـار مـوران»

1- Pierre de Coninck, De la disciplinarité à la transdisciplinarité: à la recherche d'une panacée ou d'une attitude?, Info-Stoper, Sherbrooke, Université de Sherbrooke, vol. 4, n 1, 1996, p. 1- 7.

2- Alain Létourneau, La transdisciplinarité considérée en général et en sciences de l'environnement, *VertigO - la revue électronique en sciences de l'environnement* [En ligne], Volume 8 Numéro 2 | octobre 2008.

3- مـا زلـت أكـدح عربيًّـا لتطويـر هـذا المفهـوم وتوطيـده، سـعيًا إلـى الخـروج مـن مـآزق ←

انغلاق المناهج وغياب التّواصل بينها، وتبدو بناء على ذلك الظّواهر مُنفصلة، وهو ما يجعل بلوغ الوحدة مُتعذّرًا. لهذا السّبب، ما فتئ يدعو للبين ـ مناهجيّة؛ بل سيدعو إلى ما بعد ذلك؛ أي إلى العبر ـ مناهجيّة[1]. التّطوُّر العلميّ حسب «موران» جريًا على ما ذهب إليه «فيرابند»، مدين لتلك التّعدُّديّة، وحسب «موران»، ما كان للعلم أن يكون كذلك إلّا بقدر ما هو عبر ـ مناهجيّ[2]. يفضح «موران» وضعيّة العلم الحديث، وكأنّنا بصدد تشكيل إبستيمولوجيا للتعقيد والتّعدُّديّة، كل شيء بات صوريًّا وغامضًا، وحدة المعرفة في نهاية المطاف تحتّم العبر ـ مناهجيّة، غير أنّ تلك الوحدة عادةً ما تعاني حسب «موران» من الغموض الفائق(hyper-abstraite) والشكلانيّة الغامضة (hyper-fommalisée)، وهناك عجز لتفعيل التواصل بين المستويات المتعدّدة للواقع. لا يتوقف في نظر «موران» الأمر على مجرد العبر ـ مناهجيّة؛ بل أي عبر ـ مناهجيّة نريد؟

يتساءل في الأساس عمَّا إذا كانت المعرفة أُنشئت؛ لكي تكون معرفةً موضوعةً للتّفكير والتّأمُّل والنّقد من خلال عقول بشريَّة مسؤولة، أو أنشئت لتخزّن في بنوك المعلومات والتّحكُّم بها من خلال سلطة مجهولة تفوق الأفراد[3]. هذا يعني أنّ العبر ـ مناهجيّة فرصة تعيد للأفراد المحرومين من التّفكير منذ القرن التاسع عشر حتّى اليوم، القدرة على النظر وتحقيق الثّورة النّقديّة. وعلى هذا الأساس: ما معنى العبر ـ مناهجيّة؟ إنّها دعوة لاستئناف التّفكير، للتّحرُّر، لمنح فرصة للعقل النّقديّ

← التّمثّلات المفهوميّة الجامدة، وتأسيسًا للمجتمع العلميّ المفتوح، وهذا ما يفسّر استحضاري لهذا المفهوم وتطويره بشكل مستمرٍّ في مناسبات وتطبيقات مختلفة، حيث حاولت في كتاب(المعرفة والاعتقاد: مقاربة عبر-مناهجيّة في أنساق الفكر الإسلاميّ)، أن أعقد صلة قرابة بين العبر-مناهجيّة والحكمة المُتعالية في مفرق الاعتبارات الَّتِي تتنزل منزلة فكرة مستويات الواقع، ومفهوم المعرفة بوصفها مساوقةً للوجود في حركته، الَّتِي تعزّز مواصلة مساءلة الواقع واستيعاب التّغيير، وصولًا إلى الحركة الجوهريَّة الَّتِي تُعزّز مفهوم الاستحالة، واحتواء التّناقض والثّالث المشمول. بهذا، أحاول أن أُسند العبر-مناهجية بعناصر ديناميّة، حتّى لا تتحوّل في التَّمثّل العربيّ فيما بعد إلى حالة من التّقليد الجامد أيضًا.

1- L'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité ; Science avec conscience, p.124-129, Ed. Fayard, 1982.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

وللمجتمع العلميّ المفتوح، يشير «إدغار موران» مرّة أخرى إلى أزمة الأنوار، جريًا على مذهب حكماء مدرسة فرانكفورت، يشير إلى أزمة الأنوار الَّتِي حرَّرت المجتمع، وحبست العقل، كما يدلّ عليها حسب «موران» ذلك الرعب والإخضاع الماحق للعقل، مُعزّزًا رؤيته بمقولة للروائي «أليخو كاربونتي» في رواية (عصر الأنوار)، حيث قال: لقد جاءتنا الأنوار إلى الكاريبي بالمقصلة[1].

ربطي بين العبر-مناهجيّة والحكمة المُتعالية، ينبع من التَّحوُّل الثَّوريّ في مفهوم المعرفة؛ أي إخراجها من حالة الكيف إلى التَّبعيَّة اللّازمة للمعلوم نفسه، في مُتّحد العقل والعاقل والمعقول؛ تلك حقيقة تأخذ معنًى فائقًا في ضوء الحكمة المُتَعالية والعبر-مناهجيّة، كَوْن المعرفة تنفتح على الحركة والاعتبارات، الفرق العميق بين المنحى السينويّ المُتّبع حتى ابن رشد، والمنحى الصدرائي الفريد، حيث المعرفة هي عين الوجود، وحيث هذا الوجود مراتبي وأصيل. هكذا يرتكز «موران» هو الآخر على رأي «توماس كون» في بِنْيَة الثَّورات العلميَّة، كَوْن تطوُّر العلم يقوم على- ليس تراكم المعارف؛ وإنما على- تحوّل المبادئ المُنظّمة للمعرفة؛ أي أنّ المعرفة لا تنمو وإنّما تتحوّل. غير أنَّ الواقع هو أنَّنا نعيش حسب «موران»، على المبادئ الَّتِي حدّدنا بها العلم بصورة مُطلقة[2].

كلّ هذا وجب التّذكير به، لنجعل المراكز البحثيَّة مؤسَّسة لتصريف مخرجات الإبداع، أو مجالًا للتّخاطب مع الفكر الخلَّاق، وتعزيز الثَّورة المعرفيَّة؛ أي العمل بخلاف التَّقليد والمحافظة. إنّها ثورة ضدّ ما آل إليه وضع العلم، الَّذِي بات في نظر «فيرابند» يسلك على طريق واحد، ولا يتحدّث إلّا عن طريق واحد[3]. إنّ فكرة وجود منهج ثابت، أو نظريّة ثابتة، تستند حسب فيرابند إلى فكرة ساذجة عن الإنسان ومحيطه الاجتماعيّ[4].

1- إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، تـ: عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق- المغرب، 2012م، ص 39_40.

2- L'ancienne et la nouvelle transdisciplinarité; Science avec conscience, p.124-129, Ed. Fayard, 1982.

3- paul feyerabend: adieu la raison ,p 34-36,tr. baudoun jurdant, editions du seuil,1989.

4- paul feyerabend: contre la methode,p 25,tr.B .jurdant et A .schlumberger, 1979,paris.

ماذا بعد؟

لا نريد أن نفصّل أكثر في موضوع العبر-مناهجيّة ومبادئها، بوصفها أداةً لتعبيد الطَّريق لتلقيح الحقول المعرفيَّة، لمزيد من الانفتاح نتساءل في ضوء ما آل إليه وضع العلم والمعرفة في عصرنا المحكوم بالسَّيطرة والتَّوجيه، وربط العلم بالمقاولة، وهو ما يتجاوز مجرّد أن تكون المؤسَّسة العلميَّة نفسها مقاولة، هل نعيش لحظة انسداد علميٍّ في زمن البحث العلميّ وتكاثر مراكز الأبحاث والدِّراسات؟

أخشى أن أستعمل عبارة الـ «زومبي» في توصيف وضعيَّة مراكز الأبحاث المُوجّهة، والَّتِي تكاد تشبه حالة قبوريَّة، حيث تغيب ملكتا الإبداع والنّقد، وتخضع الكائنات المسرنمة (somnambule)، غريزة واحدة، في اللّيالي المقمرة كالإنسان المستذئب، وذلك لهواية امتصاص دماء المعرفة المُكدّسة والمُتراكمة، والعجز عن التقاط المعنى في ثورة التأويل، وفي غمرة الوجود، وفي مُلتقى تلاقح العلوم والنَّظريَّات والثَّقافات. هناك هُويّة مُوحّدة وجامعة لكل ما سيسمّيه «فيرابند» بالتَّقاليد النّظريَّة، وهي الغالبة في أنماط التّفكير داخل مراكز أبحاث مُوجّهة ومُتحرّكة بصورة آليّة. لم تخضع حتّى اليوم أنماط التّفكير داخل المقاولة البحثيَّة للمحاسبة والتّشخيص والتَّشريح؛ فالنتائج الَّتِي تكشف عنها تلك المراكز تتنزّل كما لو كانت «وحيًا»، وهي بقدر ما تُوجّه لكبح التَّعاطي مع الأشياء والأفكار بوصفها مُقدّسات، إلَّا أنّها حوّلت المراكز إلى معابد، وتحوّل الباحثون إلى رهبان. لا شيء في العالم مُقدّس بعد اليوم، ما عدا ما ينتجه الباحث المندمج في المقاولة؛ بل وما زالت الأفكار فاقدة لقيمتها ما دام الفرد غير منخرط في هذا التَّقليد الأرثوذكسيّ لمقاومة العلم، غير أنّه ما أن يندمج في المراكز إيّاها، حتّى يكتسب حصانة المؤسَّسة. نتحدّث عن علامة تجاريّة للمقاولة العلميَّة، تدخل في سياق ما يُعرف اليوم بالحرب النّاعمة، وهو ما يشكل موضوع القسم الثاني من هذه المحاولة.

المراكز البحثيَّة ومصير المجتمعات في لعبة الأُمَم

إنّ وضعية العلم اليوم تضفي على مُؤسّسته الكثير من الهشاشة الَّتِي تُسهّل عليه فعل الاختراق في عالم لم يعد يدين للعلم؛ بل لسلطته ومقاولته. غير أنّ سلطة العلم لا تستند إلى قوَّته الذَّاتيَّة؛ بل إلى عوامل خارجيَّة لها علاقة بشروط السَّيطرة. العلم وسيلة للإرغام، ولقد أدَّت نزعة المحافظة في العلم، وتعزيز المؤسَّسة بالباراديغم

المطلوب، حيث لا يُصار إلى تغييره إلّا بقرار عميق، أحيانًا تحت طائلة الواقع الَّذِي يفرض مستوياته الأخرى على مناهج البحث. ولمّا باتت المؤسَّسة العلميَّة مقاولة كما ذهب «فيرابند»، كسائر المؤسّسات، فمن الطَّبيعي أنّ تخضع للمقاربة البراغماتيَّة. حين نتحدّث عن البراغماتيّة، وجب استحضار ما آلت إليه أيضًا، حيث الربط الائتمانيّ بين المعرفة والمصلحة. إنّ نتائج الأبحاث تكون مُحدّدة سلفًا، ودور المراكز هو تعزيزها عبر تدوير زوايا المفاهيم، وعن طريق التّمثُّلات الَّتِي يمنحها ويعيرها التّكرار سُلطة الخطاب. يُؤدِّي التّكرار دورًا كبيرًا في تعزيز الجدوى المصطنعة لمراكز الأبحاث، الَّتِي تعتمد جيشًا احتياطيًّا فائقًا من الباحثين عن الحظوة، والمُستعدّين للتَّعاطي مع موضوعات البحث بضمير مهنيّ، هو نفسه ضمير مُحدّد وفقًا لعقود الإذعان.

فكرة الطُّفولة الَّتِي ترمز إلى الأسئلة الحائرة والمجرّدة من كل مسبقات، مغامرة الاكتشاف، الجدّيّة، وأيضًا بالمعنى النيتشي الَّذِي يعني المرحلة الثّوريّة في المعرفة المستقلّة، كلّها تُعزِّز تلك الآنارشيَّة الَّتِي تعيد تفكيك الطُّرق الملتوية لمراكز الأبحاث المُوجّهة للهيمنة والتَّوجيه. وسنجد «توماس ميدفيتز»، في تحليل مراكز الأبحاث في أمريكا يقترب من تلك الرُّؤية، حينما أعلن بأنّ انطلاقته ستكون من الفكرة نفسها الَّتِي استلهمها بورديو من باشلار: الاستراحة المعرفيَّة. يقصد الاستراحة من كلِّ الاستعمالات المُتداولة للمصطلح؛ أي تلك الاستعمالات الَّتِي تعتمد فكرة أنَّ مراكز الأبحاث مُستقلَّة عن المُؤسَّسات الحكوميَّة والإعلاميَّة والأكاديميَّة والسُّوق، لينتهي إلى ذلك التَّعقيد الَّذِي يفرض نفسه في تعريف مفهوم مراكز الأبحاث، وتداخل أشكال الرَّأسمال الَّذِي يجب ترصده؛ ما يجعلها؛ أي مراكز الأبحاث تؤدّي «عملًا بهلوانيًّا مُعقّدًا»[1].

تُؤدِّي العدوى دورًا خطيرًا، يفوق ما كان قاربه «غوستاف لوبون» على صعيد آراء الجماهير؛ بل هناك ما يفوق هذا الوضع؛ أي العدوى في مجال البحث العلميّ وأنماط التّفكير داخل مراكز الأبحاث. تبدو هنا الموضوعيَّة مفهومًا فائق الالتباس، موضوعيَّة الباحث «الزامبي»(zombie) الَّذِي لا يرى سياق تعدُّديَّة الواقع وتعقيده، إنّها موضوعيَّة صمّاء لا ذاتيَّة فيها، خرساء لا تتكلّم، عمياء تقودها غريزة الظفر

1- توماس ميدفيتس، مراكز الأبحاث في أمريكا، ت: نشوى ماهر كرم الله، منتدى العلاقات العربيَّة الدوليَّة، الدوحة، 2015م، ص40.

بفرض المعنى على الموضوع. إنّ الموضوعيَّة الزائفة الَّتِي تعتمدها مراكز الأبحاث الموصولة بالأهداف التحكّميَّة، هي تكتيك في إستراتيجيا كبرى، وهي هنا تُؤدِّي دور مغالطة السُّلطة نفسها؛ فالموضوعيَّة هي ما يُحدّده المركز لا السَّيرورة الطَّبيعية للبحث العلميّ. تخشى مراكز الأبحاث من الذّاتيَّة بوصفها خبرةً؛ لأنّها تهدم الهيكل المُقدّس لموضوعيَّة السَّيطرة الَّتِي تحدُّدها المقاولة العلميَّة.

تُقدّم لنا تجارب مراكز الأبحاث والدراسات ومخرجاتها في العالم العربيّ، لا سيَّما في العشريّة الأخيرة قبل كتابة هذه السُّطور، المثال الأكبر على دور مراكز الأبحاث في احتواء المشهد العلميّ، لا سيَّما العلوم الاجتماعيَّة، في لعبة البحث وسلطة المؤسَّسة، حيث لاحظنا أنّ خريطة المراكز البحثيَّة غالبًا ما تخضع للتّقسيم الجيو-سياسيّ. هناك تنافس أدّى إلى بروز مراكز أبحاث، اعتمدت تدريب المراكز الكبرى وخبرتها في العالم، بغاية تعزيز القوَّة النَّاعمة في معارك جيوسياسيَّة مشهودة، كان الغرض منها السَّيطرة على اتِّجاهات الرَّأي، وصناعة رأي عام واحتواء النّخبة، أو أحيانًا التَّشويش على النّخبة. باتت مراكز الأبحاث جزءًا من سياسة الحرب النَّاعمة في إقليم أنهكته الأزمات. ودائمًا، كنَّا نلاحظ غياب التَّناسب بين البيئة الحاضنة ونوعيَّة الخطاب. وتعتمد تلك المراكز ليس على إنتاج المعرفة؛ بل على إعادة إنتاج الموجود بوفرة وسيولة، لكن، وفي هذا السِّياق، تقوم عمليَّة استقطاب النّخب، وفي الغالب صناعة نخب، ضمن إستراتيجيا السَّيطرة على مُستقبلِ العقل العربيّ، وصناعة رأي عام ثقافيّ وسياسيّ.

يتحدّث معظم من يدرس علاقة مراكز الأبحاث بصناعة القرار، غير أنّ العلاقة ظلّت هنا جدليّة بامتياز؛ ذلك لأنّ معظم المُراقبين يتجاهلون تأثير القرار السِّياسيّ على مسارات البحث نفسه. ففي بيئة غير مُتجانسة من حيث التَّقاليد والبِنْيَات الاجتماعيَّة، يتجاوز الإنفاق على مراكز الأبحاث في بعض البلاد ما يفوق الإنفاق على مؤسَّسات تعليميَّة في بلدان أخرى. باتت المراكز البحثيَّة تستغلُّ الهشاشة لاستقطاب مخرجات جامعات تنتج البطالة والتَّهميش.

تمَّ تجنيد مراكز أبحاث كثيرة خلال العشريّة الأخيرة؛ لإنجاح مَهَمّة ما عُرف بـ «الرَّبيع العربيّ»، وذلك من خلال إعداد أرضيَّات نظريَّة لإدماج الموجة المذكورة في تاريخ الثَّورات التّاريخيَّة. كان دور بعض المراكز العربيَّة هو تمكين المشهد من تراكيب، ومفاهيم، وخطاب. ونشأت على إثرها مراكز مُضادَّة، أنتجت خطابًا

مُناهضا لخطاب المراكز الأولى، وأمدّت المشهد بمعدَّاتٍ وأدواتٍ مفاهيميَّة مُناهضة. لقد أصبح المجال العربيُّ في دوَّامةٍ من الاستقطاب، والحرب الباردة بين جبهتين، كلاهما يستند إلى خطاب نقيض، لكنَّهما معًا يستوحيان ويتلقيان تدريبهما على جودة الإدارة والقدرات التَّواصليَّة على المراكز الغربيَّة نفسها. يصعب في محاولتنا هذه، تناول تلك المراكز البحثيَّة بالاسم والبيانات والأرقام؛ لأنّها باتت مرعبة وموصولة بأجهزة سياسيَّة وأمنيَّة. غير أنّ واقع المُتلقِّي العربيّ اليوم بات مُزريًا، نظرًا إلى ما يُعانيه من آثار عدم استقرار الرُّؤية، وتمزُّق المنظور نتيجة الاستقطاب الحادّ. فالجديد اليوم هو أنَّنا نلاحظ في المجال العربيّ، أنّ التَّناقض لم يعد بين جبهتين كما كان في العقود السَّابقة، بين جبهة «تقدُّميَّة» وجبهة «رجعيَّة»؛ بل داخل ما يوصف بالمجال الرجعيّ انقسمت الاصطفافات والتَّجاذبات.

تتكاثر المراكز البحثيَّة في الغرب والعالم، بعضها كالحيتان الضَّخمة والأخرى تسبح في بحر من دون قدرة على المنافسة. في هذا التَّنوُّع تختفي الأجندة الكبرى، حيث تتحوَّل المراكز الصغرى إلى شاهد زور على جودة المراكز الكبرى، في حفل يوحي بالبراءة والمعرفة النَّقيَّة الَّتي يكدح الإنسان نحوها بقلق أنطولوجيٍّ بريء. فمراكز الأبحاث في العالم الثَّالث لا تُشكّل استثناء في علاقات التَّبعيَّة؛ بل هي تستعمل مخرجات المراكز البحثيَّة الغربيَّة في سياق حجّة السُّلطة، حيث الإحالة ـ في حدِّ ذاتها ـ على المراكز الغربيَّة تُعدُّ قيمةً، وهو ما يعيدنا إلى أصل جدل المعرفة والسُّلطة. تقوم المراكز نفسها بتوظيف المراكز الصغرى في توفير المعطيات اللَّازمة قبل إعادة تحليلها، أو توجيهها على وفق الأجندة الخاصَّة للمراكز الكبرى.

في العشريَّة الأخيرة تحوَّلت مُؤسَّسة راند، ومعهد كارنيجي للدِّراسات، وبروكنجز، إلى مراكز لإعادة توجيه أنماط التَّفكير في العالم، ومنها العالم العربيّ تحديدًا الَّذي صادف اندلاع أحداث ما يُعرف بـ»الربيع العربيّ». فقد انفتح قادة الإسلام السِّياسيّ في المنطقة العربيَّة على مفاهيم كانت حتى الثَّمانينيَّات من القرن الماضي، مفاهيم مرفوضة عقديًّا. لكنّهم وبعد عشرين عامًا، أصبحوا الأكثر تداولًا لتلك المفاهيم، والأكثر ميلًا إلى تلك المراكز. لا نستطيع الحديث عن من يا ترى أثّر في من، لكن هناك تشابه في مخرجات الأبحاث، وتكامل في المحصول الفكريّ، انتهى إلى تعزيز فكرة ضرورة منح الإسلام السِّياسيّ فرصةً للحكم في المنطقة العربيَّة؛ ما شكّل مضمون كلّ الأطاريح الَّتي قدّمها كبير

الباحثيـن فـي مُؤسَّسـة رانـد التّابعـة للبنتاغـون، غراهـام فولـر، والَّتِـي شـكَّلت أرضيّـة قيـام المشـروع السِّياسـيّ للربيـع العربـيّ. هـذا يُعـزّز مـن فكـرة العلاقـة الوطيـدة بيـن المعرفـة والسُّـلطة، بيـن مخرجـات البحـث والوظيفـة السّياسـيَّة لمراكـز الأبحـاث. فلقـد تجنّـدت كل تلـك المراكـز لخدمـة اتّجـاه واحـد، والاندمـاج فـي موجـة تسـتبعد كلّ الخيـارات والاتِّجاهـات. هـذا يؤكـد، مـن ناحيـةٍ أخـرى، القـدرة والوظيفـة الَّتِـي تتمتَّـع بهـا مراكـز الأبحـاث لخلـق رأي عـام وتحفيـز النّخـب. سـنجد مـن الجديـر أن نتحـدّث عـن العلاقـة الأبويَّـة ـ إن صحّ الوصـف ـ بيـن مراكـز الأبحـاث ومجتمـع المعرفـة. وهـو مـا يسـاعدنا علـى نحـت مفهـوم بطرياركيَّـة مراكـز الأبحـاث فـي العالـم، حيـث باتـت للمراكـز وظائـف تتجـاوز التّأثيـر فـي الـرَّأي العـام؛ بـل تنتهـي إلـى تحريـر السِّياسـات، وتوجيـه النّخـب والقـادة.

وضعـت بعـض المراكـز البحثيَّـة الغربيّـة نفسـها فـي خدمـة الخـطّ السّياسـيّ لدولهـا، وذلـك عبـر اسـتهداف مراكـز ومعاهـد بحثيَّـة وعلميَّـة زميلـة فـي بلـدان تختلـف سياسـاتها مـع السِّياسـة الغربيَّـة. وليـس بعيـدًا مـا حـدث مؤخّـرًا، حينمـا قامـت بعـض المراكـز فـي بريطانيـا وغيرهـا فـي اسـتهداف مؤسَّسـات تعليميَّـة وبعـض الجامعـات فـي إيـران. كان تقريـر تلـك المراكـز، فضـلًا عـن غيـاب المعاييـر العلميَّـة فـي الاسـتنتاج، يسـتهدف التّحريـض الَّـذِي قـد ينتهـي إلـى المقاطعـة، أو فـرض عقوبـات كمـا هـو التَّقليـد المُتّبـع. لنضـرب مثـالًا عـن ذلـك، التّقريـر الَّـذِي قدّمـه معهـد «تونـي بليـر للتَّغييـر العالمـيّ فـي لنـدن»(TBI)، مُتتبّعًـا مصـادر تكويـن النّخبـة الحاكمـة فـي إيـران، لا سـيَّما تلـك الَّتِـي اختارهـا السـيد إبراهيـم رئيسـي أعضـاء فـي حكومتـه؛ بـل وأيضًـا قـادة التّفـاوض حـول الملـف النّـووي. وهـو الأمـر الَّـذِي تناولتـه مجلَّـة فوريـن بوليسـي، مُشـيرةً إلـى أنّ «هارفـارد الإيرانيَّـة» تحتضـن الحكومـة الإيرانيَّـة الجديـدة، وعَـدّ جامعـة «الإمـام الصَّـادق» مصـدر تخريـج النّخـب بمـا فيهـا المعنيَّـة بـإدارة الملـف النّـوويّ، مثـل: سـعيد جليلـي. واليـوم ينضـمّ إلـى الحكومـة ابـن شـقيق مُؤسّـس الجامعـة نفسـها الدكتـور علـي باقـري كنـي رئيـس الوفـد المفـاوض، وتناولـت الجيروزاليـم بوسـت محتـوى التَّقريـر نفسـه[1].

1- لمـاذا يقلـق الغـرب والكيـان الصّهيونـيّ مـن جامعـة هارفـارد الإيرانيَّـة:11 وكالـة أنبـاء مهـر/12/2021م؛ و د. محمـد شـمص، موقـع الخنـادق
انظر تقرير معهد بلير: Tony Blair Institute, Raisi's Rising Elite, November 2021.pdf.

لعلَّ الباحث سيصاب بذهول كبير حينما تدان جامعة؛ لأنّ في الفريق المكلَّف بالمفاوضات، وأيضًا عدد من وزراء حكومة الرئيس إبراهيم رئيسي، من خرِّيجي تلك الجامعة، مع أنّ الفريق الَّذِي باشر تلك المفاوضات من قبل إبَّان حكومة روحاني كانوا خرِّيجي جامعات أمريكيَّة، مثل: محمد جواد ظريف وزير الخارجيَّة السَّابق خرّيج (سان فرانسيسكوا ودنفر)، والشيخ حسن روحاني نفسه خرّيج جامعة غلاسكو كالدونيان.

أعرف تلك الجامعة جيّدًا، وسبق أن قدّمت فيها عرضًا عن الحضارة الإسلاميَّة، أمام عدد من أساتذتها وباحثيها. لم ألمس شيئًا غريبًا عن أيّ مُؤسَّسة تعليميَّة تطمح؛ لكي تنافس نظيراتها في البحث والتّرقّي. لكن المشكلة هنا تتعلّق بجامعة باتت معنيَّةً بالهُويَّة الحضاريَّة لبلد جنّد مُؤسّساته ونظامه التّربويّ لمَهمّة يرى نفسه معنِيًّا بها، ألا وهي تنمية التّفكير في أفق قيام حضارة بمرجعيَّة العالم الإسلاميّ، وفي سياق نبذ التَّبعيَّة والتّفكير بالاستقلال. كانت الجامعة (الإمام الصّادق) في الأصل فرعًا لهارفارد قبل قيام الثّورة، وهي اليوم تعمل على وفق سياسةٍ تعليميَّة وطنيَّة، وتحظى كما تحظى سائر الجامعات المحلِّيَّة بدعم من وزارة التّعليم. تنطوي الجامعة المذكورة على اختصاصات، وشعب، وأقسام تخصُّصيّة؛ وتدرّس كل المواد الَّتِي يدرسها الطالب في سائر الجامعات الدَّوليَّة، كما تنطوي على نشاطات لتنمية الفكر والعلوم كما تفعل مراكز ومعاهد بحثيَّة في العالم. ما الَّذِي جعل جامعة مثل تلك تستهدف من خلال مراكز بحثيَّة في الغرب؟

يضعنا هذا التّقرير أمام الطَّابع الصّراعيّ الَّذِي تخوضه بعض المراكز البحثيَّة تجاه زميلات لها، أو ضدّ معاهد تندرج ضمن سياق وشروط معرفيَّة، وأُنموذج معرفيّ مُختلف، وهي تبدو أداةً في معركةٍ إمبرياليَّةٍ واسعةٍ، تستهدف الفكر، والسِّياسات، والرُّموز، والعلامات، والاقتصاد، والأمن، وكلّ مظاهر القوَّة النّاعمة الأخرى. لقد تشكّلت مراكز الأبحاث على مراحل داخل الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وأدَّت أدوارًا على مستوى اتِّخاذ القرار، وتوجيه الرَّأي العام؛ ما جعلها أدوات مُتقدّمة في الحرب الباردة، حيث تصف البرافدا السُّوفياتيَّة يومها مثلًا مؤسَّسة روند بأنّها، الأكاديميّة الأمريكيّة للموت والخراب[1].

1- توماس ميدفيتس، مراكز الأبحاث في أمريكا، مصدر سابق، ص 93.

أزمة الأُنموذج أو غياب الباراديغم المفتوح

أدَّت المراكز البحثيَّة دورًا أساسًا في تأهيل الرَّأي العام وتوجيهه؛ لتعزيز سياسات ذات أبعاد جيوستراتيجية. تبدأ المسألة بتبنّي فكرة، أو مشروع من قبل مراكز أبحاث، لتقوم هذه الأخيرة بما يكفي من التّأطير البيداغوجيّ، واستقطاب الباحثين بهدف توسيع نطاق تلك النّظريّة. يؤدِّي التّكرار والخطاب البحثيّ عنصرًا في عمليَّة الإعلان. وخلال السّنوات الماضية استولت فكرة «جوزيف ناي» حول القوَّة النّاعمة، مُضافًا إليها نظريّة ميدانيَّة يمكن تصنيفها في البرمجة اللُّغويَّة العصبيَّة، وهي نظريَّة «جين شارب» حول اللّاعنف؛ لتكتمل عناصر ما ستتبنّاه بعض مراكز البحث والتّأهيل عربيًّا، تحت عنوان التّغيير، تلك العناصر الَّتي سيتبنّاها مركز أدَّى دورًا كبيرًا في عمليَّة التَّأطير تلك، مثل «أكاديميَّة التّغيير»، وهي الآتية:

- الخروج من باراديغم التَّدخُّل الكلاسيكيّ إلى باراديغم الحرب النّاعمة(جوزيف ناي).
- الخروج من باراديغم إدارة الأزمة على قواعد الحرب الباردة إلى باراديغم «تصريع الثّقافات»، وتفجير العيش المشترك.
- الخروج من باراديغم الاستقرار الإقليميّ إلى الفوضى الخلّاقة، عبر تفجير بِنْية التَّحالفات، وتمزيق الخرائط والفوضى الخلَّاقة (برنار لويس، كوندوليزا رايس).
- تفجير العصيان الاجتماعيّ على قاعدة نظريَّة اللَّاعنف، بوصفه تمهيدًا للتَّدخُّل العسكريّ تحت عنوان نشر الديمقراطيَّة.

كان العالم عشيَّة انهيار سور برلين وسقوط الاتحاد السوفياتيّ، يعيش على سبيل أنموذج معرفيّ مستقرّ في تحليل السِّياسات الدوليَّة. غير أنّ هنتنغتون حاول اقتراح باراديغم جديد، يقوم على تحليل السِّياسة الدوليّة وفقًا لباراديغم ما بعد الحرب الباردة، وتبنّى حينئذ رؤية صدام الحضارات، كما تبنّى رؤية برنار لويس نفسه بخصوص الفوارق الإثنية والثَّقافيَّة وتناقض الثَّقافة الإسلاميَّة مع الغرب. هيمن ذلك الأنموذج على الكثير من المراكز البحثيَّة في الغرب، إلَّا أنّه أُنموذج لم يفرض نفسه بتمامه على التّقاليد البحثيَّة؛ بل تمّ مزجه بنماذج أخرى، وإخفاء الجزء الأهمّ منه الَّذِي يدعو إلى الانسحاب من الشّرق الأوسط. لقد تمّ خلق أنموذج مُركّب هو الَّذِي هيمن على مراكز الأبحاث والدِّراسات اليوم في الغرب، مزيج من نظريَّة نهاية

التّاريخ لفوكوياما وصدام الحضارات لهنتنغتون، فضلًا عن المزج بين نظريّة العنف في العلاقات الدّوليَّة واللّاعنف، بين سياسة التَّدخُّل والحرب النّاعمة. ففي الوقت الَّذي غدا فيه البحث عن النّماذج التفسيريّة يستنزف المراقبين إزاء التّقاليد البحثيَّة الرّاهنة، غاب عنهم أنّ ما يجري اليوم له علاقة بأنموذج معرفيٍّ مزيج. وهذا ما يرى فيه بعضهم تجاوزًا لتلك النَّظريَّات التّقليديَّة؛ بينما الحقيقة أنّها كلّها موجودة في الأُنموذج الجديد. وما زال العالم اليوم خاضعًا لجدل المركز والهامش، كما ما زالت سياسة الهيمنة حاضرة بقوَّة في العلاقات الدّوليَّة. وحيث إنّ السَّيطرة باتت في ذُروتها في السِّياسات العالميَّة، فكذلك المعرفة وبِنْيتها تعاني الخضوع لذُهان السَّيطرة والامتلاك. لقد تمَّت صياغة فكرة الرّبيع العربيّ ـ وهي فكرة قياسيَّة ـ في معهد السّلام الأمريكيّ(USIP)، وبناءً عليه، تمّ تدريب آلاف النَّاشطين من الشّباب العربيّ على الكفاح غير المُسلَّح[1]، فيما نهضت مراكز أُخرى على تدريب مئات الباحثين على التّفكير وفقًا لأُنموذج التّغيير، واستبعاد نظريّة المؤامرة.

لم يعد ذلك الرّصد يخفى اليوم، لا سيَّما بعد أن تفجّرت التّناقضات العلائقيّة في الإقليم وفي المسرح الدوليّ، وبعد انكشاف الطّابع السّوريالي لتلك الثّورات، غير أنّ ما يعنينا هنا هو الآثار السّلبيَّة الَّتي خلّفتها تلك المراكز البحثيَّة المُوجّهة، على العقل، حيث سيتطلَّب الأمر سنوات كثيرة لتفكيك أوهام تلك الحقبة، والتَّحرُّر من سيطرة المفاهيم ووظائفها الوظيفيَّة الَّتي ارتهن لها العقل العربيّ في السَّنوات الماضية. نتحدّث عن آثار مَرَضيّة والحاجة إلى العلاج، لكن ما أدوات العلاج حين يستهدف المرض الوعي نفسه. إنّ المراكز البحثيَّة ليست فقط تُسهم في إخضاع الواقع لوظيفة تأويليّة تستبعد مستوياته الأخرى فحسب؛ بل إنّها في سعيها إلى امتلاك الرَّأي العام تقوم بتدمير تلك المستويات، وإخضاع العقل والواقع لمستوى واحد تُحدّده السِّياسات. إنّها تكريس مخاتل للشُّموليّة. وإنّ العمليَّة العلاجيَّة تقتضي استئناف شكل من الحركة النّقديَّة للأنموذج المعرفيّ المُهيمن على مراكز الأبحاث، الحركة النَّقديَّة بِوصفها فعلًا تحرُّريًّا.

لو شئت أن ترسم بورتريه للشّخصيَّة البحثيَّة النّمطيَّة المصنّفة في تقاليد البحث، فهي كالآتي:

1- حسن محمد الزين، الرّبيع العربيّ، آخر عمليّات الشَّرق الأوسط الكبير، دار القلم الجديد، بيروت، 2013م، ص75.

- شاب اعتمد الحافظة بِوصفها وسيلةً للتَّمثُّل المفاهيمي، يخرج لسوق الشغل مُحمّلًا بكلّ أثقال الوضع الاجتماعيّ وتحدّياته، وهو إلى جانب ذلك ابن بيئة لم يغادرها ثقافيًّا؛ بل حقّق داخلها شكلًا من التّخارج الاجتماعيّ وليس الثّقافيّ، وأعني بهذا التّفريق، أنّ الباحث وقد تخرّج في شروط اجتماعيَّة قاهرة، يستعمل ذلك المكسب مطيَّة لتحسين وضع اجتماعيٍّ لا خلفيَّة ثقافيَّة يظلّ مدينًا لها؛ بل تُؤدِّي التّمثُّلات المفهوميَّة دورًا في تعزيز تلك الثَّقافة.
- في وضعيَّة انسدادات سوق الشغل في البلد العربيّ، وفي ظلّ السِّياسات القمعيَّة والشّموليَّة، تظهر نزعات الانتهازيَّة، وتصبح المفاهيم هنا لما جُعلت له، فنصبح أمام عمليّة استقطاب حادّة، روبوتات لإعادة الإنتاج، يُسهمون في تكريس الجمود المعرفيّ بوسائل معرفيَّة، باحثين بوصفهم جيشًا احتياطيًّا في مسار صراع الهيمنة الإمبرياليَّة لحماية المستوى الضروريّ الخضوع عبر خفض الوعي والشّعور بالتَّحرُّر. إنّها حركة إمبرياليَّة مُمنهجة ونسقيَّة؛ تستهدف محاصرة التَّحرُّر على خريطة الدماغ البشريّ. إنّهم يدركون أنّ التّطوُّر المعرفيّ كما ذكرنا هو تحوّل وليس نموًّا، وهنا تصبح لعبة الأمم ليست ظاهرة في السِّياسات الدَّوليَّة؛ بل تصبح ظاهرة في السِّياسات المعرفيَّة؛ تصبح المراكز البحثيَّة المرتبطة بالمؤسّسات الهيمنيّة، مثل غرف عمليَّات تستهدف الدّماغ البشريّ، وبنية العقل الثالثيّ عمومًا، والعربيّ خصوصًا.

أدَّت المراكز البحثيَّة دورًا مُساندًا للمعركة الإمبرياليَّة، وساعدت على التّسويغ الديماغوجيّ لسياسات التّدخُّل. وهذه من القضايا الَّتِي لم تعد تخفى على المراقبين، غير أنّ ما يعنينا هنا، هو كيف أسهمت تلك المراكز في عمليّة النّكوص، وتراجع الحسّ الإبداعيّ، وغلبت النّمطيّة والتّقليد. إنّنا أمام مفهوم العدوى كما تناوله «غوستاف لوبون» في معظم أعماله الَّتِي تتعلّق بانفعالات الجماهير، لكن الأمر اليوم تجاوز قضيّة الجماهير لنصبح أمام النّخبة نفسها بِوصفها ضحيَّة ذلك النَّمط من السِّياسات الفكريَّة وتسلّطات النّماذج المعرفيَّة. إنّ ما أفرزته المرحلة الأخيرة من مراكز الأبحاث الموجّهة إمبرياليًّا، كان قد ساوى بين الجماهير والنّخبة على مستوى التَّوجيه والتّحكُّم. وهي المرحلة نفسها الَّتِي ستشهد أعنف تصعيد ضدّ السَّلام العالميّ، ما يؤكد بأنّها كانت مرحلة لتعزيز المغالطة النّظريّة، وتربية أجيال

من النّاشئة على أنماط تفكير تؤمنها البحوث والدّراسات الزاخرة، والمُكرّرة، ومن هنا بعدها البيداغوجيّ. لم يعد التّحدّي يتعلّق بزيف في الأفكار ومغالطات تقوّض مصير الحقيقة؛ بل أصبحنا أمام تحوّل في الذّهنيَّات، وأنماط تحوّلت إلى ثقافة عامّة؛ لتوحيد العالم على الزّيف، وكذلك لتدريب الذّهن على نمط مُحدّد من التّفكير. وهو تحدٍّ قائم، يواصل انتهاك المُتلقّي، يكاد يشبه جائحة تخترق المناعة العقليّة، وتجعلها ممارسة جبريّة مُجرّدة من عنصرَيْ: الإرادة، والحرِّيَّة. إنّها سياسات تناهض مبدأ التّحرُّر الَّذِي يبدأ من أنماط التّفكير قبل أن يتنزل بوصفه برنامجًا للتّغيير. فلقد اتّضح خلال العقد الأخير، أنّ انقلابًا مُمنهجًا في كلّ المفاهيم، انتهى إلى تدشين عصر العدميّة والعبوديّة بتوجيه مختلف للمفهمة الفلسفيّة الكلاسيكيّة، للإيحاء بأنّنا نعيش عصر الثَّورة، والتَّحرُّر، والمعرفة. سيكون من الواجب أن تصبح مَهمَّة مراكز البحوث والدّراسات البديلة، منصبَّة على دراسة الآثار السّلبيَّة والتخريبيَّة لتلك الأنماط، سعيًا إلى إعادة تأهيل الذهنيَّة الجماعيَّة، والأُنموذج المعرفيّ؛ لتحقيق ثورته الحقيقة على الجمود، والتَّحكُّم، وربط العلاقة مجدّدًا بين العقل والتّحرُّر على أُسُس عبرـ مناهجيّة، وحدها تستطيع الكشف عن هشاشة ما يُسمّى اليوم بمجتمع المعرفة.

خاتمة

يهمّني أن أكشف عن الغاية من هذه المقاربة. إن كان هناك من سيفهم منها تشجيع العزوف عن الانخراط في مُنظّمات البحث العلميّ، فسيكون ذلك فهمًا قاصرًا عن الهدف الثّوريّ من مقاربتنا؛ بل إنّها وقفة ومراجعة ومحاولة للدّفع بالموقف إلى إعادة اكتشاف البدايات الثّوريّة الَّتِي تستعيد المعنى والجدوى والجودة أيضًا لمراكز الأبحاث خارج مُستحقّات لعبة الأمم. وعليه، إنّها دعوة إلى التَّحرُّر، إلى إقحام تلك الشعبة من الكفاح التَّحرُّري داخل مراكز الأبحاث والدّراسات الَّتِي تقوّض إرادة المعرفة والشجاعة اللّازمة للنُّهوض بتلك المَهَمّة، مراكز لتدجين الفكر والرأي العام، حيث باتت أدوات مُسخَّرة في معارك الوعي المصيريَّة.

وعليه، فإنّ الدَّعوة قائمة ـ بناءً على ما سبقـ للتّفكير في بدائل، وإعادة إنتاج مراكز وحلقات تفكير؛ تعمل في إطار أجندة واضحة، وتستهدف إنقاذ البشريَّة من العدوى والتلوّث البيئيّ المستهدف للدّماغ البشريّ. تعاقدات ثوريّة على أرضيّة

مشروع نقديّ كالَّذي أظهرته بعض المراكز العلميَّة الَّتي شكّلت منعطفًا لفهم آخر للعالم، والعقل، والتّنوير، والإنسان، والعدالة، والتّوزيع، والحرّيّة، والعلم، تمامًا كالَّتي نهضت بها «مدرسة فرانكفورت». وهي مثال عن حلقةٍ مرنة ومفتوحة شكّلت إطارًا لحركةٍ بحثيَّةٍ واجتهاديَّةٍ لا تقوم على قتل المؤلّف ولا على صناعة القادة المزيَّفين، لقد ظلّ لكلّ من ماركيز، وهوركيمر، وأودرنو، وهابرماس، وإيريك فروم موقعهم الحُرّ والمُستقل.

«مدرسة فرانكفورت» مثالًا للمعاهد و«الَّتينك تانك» والحلقات البحثيَّة المطلوبة في عالم يتمُّ فيه الاستحواذ على مراكز بحثيَّة أسهمت وتُسهم في الجمود الفكريّ وخداعه، وصناعة قادة التَّفكير المُزيَّف من خلال الاستثمار في أمراض النّفس البشريَّة للمُرشّحين لقيادة الضمير والعقل، وكذا الاستثمار في الميول الانتهازيَّة لتحريف رسالة البحث العلميّ من خلال سياسة شراء الذّمم.

إنّنا نقصد بالموقف الثّوريّ، ذلك الموقف الَّذي يناهض الجمود، ويحقّق الانقلاب على الأُنموذج المعرفيّ القائم اليوم، وتصعيد المراقبة والحساب على محاولات احتواء المفاهيم الفلسفيَّة الكبرى في مخطّط الإخضاع وصناعة الهشاشة، فضلًا عن محاولات تأمين شروط الهيمنة على العقل.

في مثال المراكز البحثيَّة، لسنا خارج لعبة التّحكّم الَّتي تنهض بها جماعة المصالح الضّاغطة، فلقد أريد للمراكز البحثيَّة أن تستعيد العقل النّقديّ إلى حالة العقل الجمعيّ المُوجّه، وإضفاء الطّابع العقلانيّ على حالة القطيع. وهذا ما يدفعنا إلى تفعيل مفهوم لطالما حمنا حوله، وهو هنا أكثر وضوحًا، يتعلّق بما أسمينه بأنثربولوجيا النّخب؛ أي وضعيّة المثقَّف داخل رهانات المراكز البحثيَّة وسياساتها، ومصير سلطته المجرَّدة مقابل سلطة المثقّف المُندمج، ليس في المجتمع؛ بل في رهانات المراكز البحثيَّة، فأنثربولوجيا النّخب، دعوة أقدمها بوصفها فرعًا جديدًا في الأنثربولوجيا الثَّقافيَّة، يهدف إلى تحليل دور العصبيّات المراكزيّة تمامًا كالعصبيّات القبليّة، وأنماط الثقافة والتوجيه الثّقافيّ الَّذي تنتجه المراكز، ودور مخرجات مراكز الأبحاث في تحديد مصير التغالب الجيوستراتيجيّ، ومستقبل المثقّف ووظيفته في ظلّ هيمنة عقود الإذعان المراكزيّة.